اللحن في اللغة

الاستاذ محمود شريف الخياط

للغتنا الجميلة خصائص فذة وميزات منفردة فاخرت بها سائر اللغات • ولامر ما كانت هذه اللغة وعاء كلام الله ومستودع سره • وقد زاولت لغتنا ضروبا من التعبير زادتها سعة واغنتها نماءً ، وتلك الانماط التعبيرية لاتنحصر بالاسلوب ولا تقتصر على التعبير ، وانما احتوت في اثنائها كافة مقوماتها ، فاني قد اشرت اعنى بذلك قدرة اللغة العربية على امداد المنشىء بمثل حية يستطيع صوغها نماذج الى الاسلوب وجعلته من خصائص العربية بينما هو من مردودات الكاتب ، انما صالحة للمتعة وللافادة • والا فان الاسلوب ذات الاديب وصورته ، لكن غناء اللغة العربية يثري الاساليب ـ وينوعها ولعل من مظاهر هذا الثراء وجود الاشتراك في اللغة ، وهو ان تكون المعاني اكثر من الالفاظ فيزين الكلام اذا احسن الاختيار ، ويكون التعبير مؤديا الغرض الذى سيق من اجله ومطابقا لمقتضى الاحوال ، اذا توفر للاديب دقة النظر ، وتهيأ له رهافة الحس واتصف برقة الشعور وسيتضح ـ من خلال السياق ـ ما للاشتراك من خلابة في التعبير ورقة في التصوير •

ومن الاشتراك في الالفاظ مادة (اللحن) التي تعانى منها لغتنا اشد المعاناة • والمعروف اليوم من تداول لفظة (لحن) ومشتقاتها انها تدل على لفظة «اخطأ» وما اشتق منها بيد ان هذا المدلول للفظة لحن لم يشع في الاستعمال على انه مرادف للخطأ في الاعراب الا متأخرا •

١ ـ ولعل اللحن المقصود به الخطأ في فقه الافكار وتصريف الاساليب قد سبق خطأ اللسان في الاعراب فالمتتبع للفظة لحن في المعاجم يجد ان للحن معاني عدة ليس من اولها اللحن بمعنى : خطأ اللسان باواخر الكلم • قال شارح

القاموس : اللحن من الاصوات المصوغة الموضوعة وهى ما يرجع فيها ويطرب • يقولون فلان ألحن الناس في القراءة : اى احسنهم تطريبا وترجيعا واعربهم صوتا ، اعربهم بمعنى اصفاهم • وربما اطلق اللحن على الغناء والتطريب قبل ان يزحف الاشتراك فيضع تحت كنفه المعاني الاخرى التي ضمتها اللغة • قال الشاعر :

وهاتفين بشجو بعدما سجعت ورق الحمام بترجيع وارنان
باتا على غصن بان في ذرى فنن يرددان لحونا ذات الوان

وقالوا :ـ لحن معبدي : اى صوت مغنى ، والصوت والكلام الملحن (المترجم شعرا والمعبر عنه غناءً بالترجيع والتطريب » • وهذا المعنى للفظة اللحن شائع فينا ومستعمل ومن المرجح انه اول المعاني دخولا في اللغة •

٢ ـ اللحن : يعنى عند بعضهم عموم اللغة او غريبها ، ويحملون على ذلك المعنى قول عمر بن الخطاب (رض) : تعلموا الفرائض والسنن واللحن في القرآن • واللحن هنا اللغة لان في تعلمها معرفة الفاظها ادراكا لسر الاعجاز والاحاطة بعلوم القرآن ، ويأخذون قول عمر كذلك (تعلموا لحن القرآن اى لغة القرآن ومعلوم ان القرآن نزل بافصح لغات العرب) ، فأمر عمر الناس بتعلم لحن القرآن ، اشارة الى ان المقصود باللحن اللغة الفصحى • وعلى هذا التخريج جعلوا قوله ايضا «أبى اقرؤنا وانا لنرغب في كثير من لحنه»(١) اى من لغته •

اذا اللحن هو اللغة عامة عند البعض وعند آخرين خاص بغريب اللغة ، هذا على رأى من يفسرون اقوال عمر الآنفة ، وورد في الصحاح في تفسير قوله ، تعلموا اللحن في القرآن ، اى لغة العرب في القرآن واعرفوا معانيه •

قالت مقاتلة الكلابية :

وقوم لهم لحن سوى لحن قومنا وشكل وبيت الله لسنا نشاكله

يعني : قوم لهم لغة غير لغتنا

٣ ـ واللحن : التعريض والاشارة والايهام والايماء والتورية وتتمثل هذه المعاني في قول اسماء الفزارى

وحديث الذه هو مما   ينعت الناعتون يوزن وزنا
منطق رائع وتلحن أحيانا   وخير الحديث ما كان لحنا

وفسر شراح القاموس هذا البيت بقولهم : اى انما تخطى في الاعراب وذلك انه يستملح من الجوارى ذلك ، اذ كان خفيفا • ويستقل منهن لزوم مطلق الاعراب •

وانى أميل عن هذا وارغب في رأى مفاده : ان جمال الالقاء من المرأة هو ترقيق لسانها لبعض الحروف التي تكسب موسيقى الشعر حسن سماع فتستأنس الاذن به وتهش له ، ومن الطف ما تؤديه من الاحرف من غير تفخيم الراء والميم والطاء والتاء بحيث يستمتع السامع ويسر بالقائها ويطرب لصوتها •

اما لو كانت تسدو الشعر على وتر فالمراد من اللحن الغناء ليس غير ويقولون (لحن له لحنا : قال له قولا يفهمه عنه ويخفى على غيره) لانه يحيله بالتورية عن الواضح المفهوم •

وفي الحديث الشريف « اذا انصرفتما فالحنا الى لحنا أي أشيرا الي ولا تفصحا وعرضا بما رأيتماه به » أمرهما بذلك لانهما ربما أخبرا عن العدو بيأس وقوة فأحب ان لايقف عليه المسلمون •

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

٤ – ومن معاني (اللحن) الفهم والفطنة • فاذا سمع جمع كلاما واحدا ، فطن البعض الى قصد المتحدث وفهموا ما يعنيه دون سواهم • وعلى هذا يحمل بيت القتال الكلابى •

ولقد لحنت لكم لكيما تفهموا   ووحيت وحيا ليس بالمرتاب

اى : اردت ان ابين لكم ما خفى على غيركم من امر •

واللحن – بفتح الحاء – الفطنة ، وربما سكنوا الحاء في الفطنة • ورجل لحن اى فطن • وعلى هذا قول لبيد يصف كاتبا :

متعود لحن يعيد بكفه   قلما على عسب ذبلن وبان

ولعل من الفطنة والذكاء ونية المرء في الميل بكلامه الى التصنع مانهى عنه(ص)

في الحديث الشريف / لعل احدكم ان يكون الحن بحجته من الاخر فمن فضيت له بشيء من حق اخيه فانم اقطع له قطعة من النال « وقول عمر بن عبدالعزيز (عجبت لمن لاحن الناس كيف لايعرف جوامع الكلم) اى فاطنهم فوجب عليه ان يختار لكل حال مقتضاه ولكل مقام مقاله • ويقال : لحن يلحن لحنا ـ بفتح الحاء ـ فهو لحن كفرح ، اذا اصاب وفطن لحجته وانتبه •

وحدثوا ان معاوية سأل الناس « كيف ابن زياد فيكم ؟ » قالوا : « ظريف على انه يلحن ، قال « فذاك أظرف له » •

ذهب معاوية الى اللحن الذى هو الفطنة وذهبوا هم الى اللحن بسكون الحاء الذى هو الخطأ • ويقولون فلان لحن بكسر الحاء اى العالم بعواقب الكلام الظريف •

وقال الطرماح :

وأدت الى القول عنهن زولة(٢)   تلاحن او ترنو لقول الملاحن

اى تحدثت الى بمعنى لايفطن له ويخفى على الناس غيرى •

٥ ـ ومن اللحن ما معناه من يخطىء الناس ويطلب الصواب في المنطق والاعراب يقولون رجل لحان ولحانة بالتشديد فيهما « ولحنه كهمزة من يخطىء غيره • ولحنه تلحينا خطأه في الكلام يخطئه •

اللحنة ـ بالضم ـ من يلحن الناس اى يخطئهم • والمعروف في هذا البناء لحن هو الذى يكثر فيه الفعل كالهمزة واللمزة والطلعة والحذعة ونحو ذلك • واللحنة ايضا من يروى الحديث بوجهين وعليه قوله (ص) : (كان القاسم رجلا لحنة) •

٦ ـ واللحن هو العنوان والعلامة بمعنى واحد وهو ما يشار به الى الانسان ليفطن به الى غيره :

وتعرف في عنوانها بعض لحنها   وفي جوفها صمعاء(٣) تحكي الدواهيا

٧ ـ ومن معاني (الخطأ) • وهو ان يميل المتكلم عن المنطق والاعراب ،

وترك الصواب في القراءة والنشيد (٤) .

ولحن في كلامه اذ مال به عن الاعراب الى الخطأ ، او صرفه عن موضوعه الى الالغاز (٥) .

واللحانة واللحانية واللحن . محركة بالفتح – وقد لحن في كلامه يلحن (فتح ، يفتح) لحنا ولحونا ولحانة ولحانية فهو لاحن مال عن صحيح المنطق(٦) والملاحظ في هذا العرض ان مادة (لحن) وما اشتق منها دلت على معاني عدة منها اللحن بمعنى مطلق الخطأ . أما كيف يصرف الاديب بأسلوبه هذه المعانى وينقلها دالة على ما يعنى ، فهذا امر يتعلق بدقة الاختيار لالفاظه ، وصحة المناسبة في المعاني وتمام التعويل على القرينة حتى لا يقع القارىء في تعمية من الكلام وسوء تفسير لغرض الاديب . لان الالفاظ المشتركة يتوقف فهمها على قوة القرينة ، فاذا اشتبكت المعاني ضاع ما يرجوه الكاتب من نقل نتاجه الى القارىء او السامع . ولقد استعمل القرآن الكريم الفاظ مشتركة لكن ذلك الاشتراك في المعاني نصر اللفظة المستخدمة فصار القارىء والسامع لا يدرى اى معنى اقوى ليختاره وهذا سر من اسرار الاعجاز ، قال تعالى « ان المجرمين في ضلال وسعر» ومن معاني السعر : العطش الشديد ، يقولون ناقة مسعورة ، والسعر نوع من الجرب يصيب الابل والسعر داء معروف في الكلاب . والسعر النار التي شبت وهي بكر فلننظر الى هذه المعاني كيف يقوي بعضها بعضا حتى تؤدى الصورة كاملة ومثل هذا في دقة الاشارة وبلاغة العبارة قوله عزوجل واصفا المنافقين مبينا حالتهم في خطابه لنبيه (ص) « ولو نشاء لاريناكم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول ، والله يعلم اعمالكم » فاللحن هنا يتضمن معاني كثيرة . كل معنى ينصرف اليه يكون نصرا وعضدا لسواه فالمنافق متلجلج في حجته يلوى لسانه ليحسب السامع ان قول المنافق حق . او ان اللحن هنا التلون والعلامة اللتان يعرف بهما المنافق . او اللحن الا يماء والتورية او ان اللحن الخطأ .

فاذا تضافرت كل هذه المعاني عضدت لفظة (لحن القول) . في الآية فكان الكلام مؤديا للقصد بالغا الغرض ومطابقا لمقتضى حال المخاطب .

لكن آفة الفن الكتابى – اليوم – ان يتعاطاه من لم يتهيأ له بتحصيله ولم

يستعن عليه بطبعه فأكثر المزاولين لهذه الصناعة متطفلون اغراهم بها رخص المراد منهم يتملقون الشهرة ويتطلبون ويتطلبون من ورائها العيش ، وكل جهازهم لها ثقافة ضحلة ؛ وقريحة محلة ومحاكاة رقيمة ، فزهدوا في اللغة ، وانصرفوا عن النحو واستخفوا بالبيان وتنكروا للشعر ، يصبح التطيق علما والشعبذة فنا • والثرثرة بلاغة واللحن تجديدا والركة رقة فينفق الرخيص ويكسد الغالى • ويشيع المبتذل ويندر الحر ويكثر الكتاب وتقل الكتابة ، لان الامر صار في غير اهله « فادعى الاعجمى نسب آل البيت ، وجرى الهجين في حلبة الكميت»(٧) وما درى هؤلاء واولئك ان اللغة العربية عنوان امة عرفت بها فصار بين الامة ولغتها التزام لا ينفك ــ فلا تكون الامة الا بلغتها ولا تعيش اللغة الا بمتكلميها ، ولايجدر بأمة تريد النهوض وترغب في مجاراة الامم وتروم معالى الامور ان تتنكر لاصل وجودها وسر بقائها وهو ميراثها اللغوى فيتحتم على كل عالم ومتعلم ان يبوء بقسطه ويقوم بعبئه ويذود عن لغته فلغتنا نبع لا ينضب معينه يعطى المدد لكل من يلتمس • واعود فاقول : ان اللحن من الالفاظ المشتركة وهي ما كان للفظ الواحد اكثر من معنى ومن معانيه : اللغة او غريبها ، والتصويب والعلامة ، واخيرا اللحن بمعنى الخطأ في الاعراب •

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المراجع

(١) تاج العروس ج ٩ ص ٣٣١ مادة لحن
(٢) كتاب الامالى ص ٥ زولة : قناة ظريفة
(٣) صمعاء : القلب الذكى
(٤) تاج العروس مادة لحن
(٥) اساس البلاغة
(٦) تاج ج ٩ ص ٣٣١
(٧) الكميت هو الاصيل من الخيل